زياد ماجد *

كرة القدم أموال وسياسة: ميدان للصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي

ليس في التوظيف السياسي والاقتصادي لكرة القدم الذي نشهد تزايده اليوم، وفي الصراعات عليها وعبرها، ما هو جديد فعلاً. فاللعبة الأوسع شعبية في العالم تحولت منذ ثلاثينيات القرن الماضي وانطلاق مسابقات كأس العالم إلى ميدان تتداخل فيه المسائل الرياضية والسياسية والقومية، تماماً كما تداخلت ولا تزال مسائل طبقية وجهوية ومذهبية.

على أن الجديد اليوم هو حجم الأموال المستثمرة في اللعبة وفي الحقل الإعلامي ـ الإعلاني المرتبط بها، وبحث دول صغرى غنية ورجال أعمال دول كبرى أو صاعدة عن مشروعيات قد تتيحها لهم كرة القدم وحضورهم فيها للترويج لإنجازاتهم.

هنا استعادة تاريخية لتطور مراحل ارتباط كرة القدم بقضايا تتخطى ميدانها، وعرض لبعض أوجه الاستثمار والصراع الذي يدور حولها، وخصوصاً المنافسة العربية الخليجية والحضور الكثيف منذ عقدين للصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي في بطولات أوروبا وأميركا اللاتينية، كما في أروقة "الفيفا".

من البعد الطبقي والديني إلى التوظيف القومي والسياسي

تأثرت كرة القدم الحديثة في نشأتها الإنجليزية المقوننة والممأسسة بدءاً من سنة ١٨٦٣ ببُعدَين: البعد الطبقي، والبعد الجهوي ـ المناطقي. فاللعبة كانت لعبة عمالية مدينية في الشمال الإنجليزي الصناعي، في مقابل تطورها في وسط البلد وحول لندن بصفتها لعبة طلابية (ثانوية وجامعية) يمارسها أبناء الفئات الميسورة، ويتابعها خليط طبقي. ويُعدّ فوز نادي بلاكبيرن الشمالي بأول بطولة له في سنة ١٨٨٣ متغلباً في المباراة النهائية على نادي قدامى جامعة إتون، نهاية حقبة التفوق الطلابي، وبدء السيطرة الشمالية. وقد رافق ذلك إدخال الاحتراف إلى الشمال، وتنافس ديني (كاثوليكي ـ بروتستانتي) ومهني (وفق القطاعات الصناعية) على تأسيس الأندية فيه

* كاتب لبناني وأستاذ جامعي.

واستقطاب اللاعبين، في مقابل رفض في الوسط والجنوب للاحتراف وإصرار على اللعب بهواة يحظر انتماؤهم الطبقي (الأرستقراطي والبورجوازي)، وكذلك تخرّجهم الجامعي، اتخاذَ الرياضة مهنة لهم أو مورد رزق.

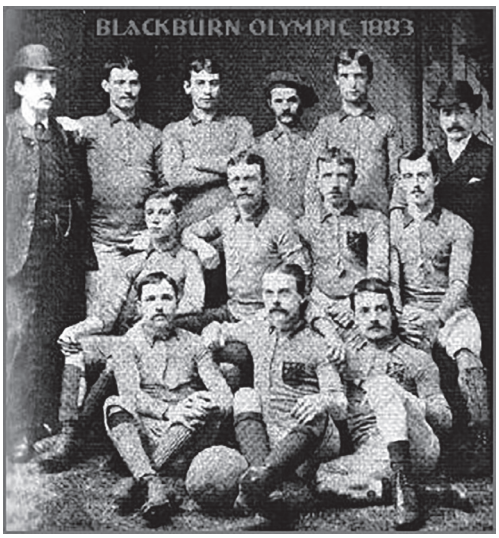

فريق نادي بلاكبيرن الإنجليزي الفائز ببطولة سنة ١٨٨٣.

ومع انتشار لعبة الكرة في إسكتلندا ثم في إيرلندا، تحول العنصر الديني في انتماء مالكي الأندية وجماهيرها (بحسب مدنهم أو أحياء المدن نفسها) إلى أحد أبرز عناصر التنافس والتنابذ. وعادت المسائل الطبقية والمناطقية لتطغى من جديد في تكوين عصبيات الولاء للأندية في أواخر القرن التاسع عشر، مع تقدّم شعبية اللعبة في بلجيكا وهولندا والدانمارك، ثم في فرنسا وإيطاليا، حيث كان خرّيجو الجامعات الإنجليزية وأساتذة تعليم اللغة الإنجليزية قد أنشأوا فرقاً وروّجوا لها.

وقبل انتهاء القرن نفسه، أسس عمال سكك الحديد الإنجليز وعمال المرافئ الوافدين من أوروبا أولى أندية الكرة في الأوروغواي والأرجنتين، قبل أن يساهم توسّع اللعبة أوروبياً في مطلع القرن العشرين في زيادة حضورها وشعبيتها في معظم المستعمرات أو المستعمرات القديمة، مع مفارقة أن سكان أكبر مستعمرات "الإمبراطورية البريطانية" البعيدة عن لندن فضّلوا على كرة القدم لعبتَي الرُّكبي والكريكيت المنافستين لها. وقد سرى هذا على القارة الأوقيانية وعلى شبه القارة الهندية، كما على جنوب أفريقيا.

وبدءاً من ثلاثينيات القرن العشرين، بدأ البعد القومي يحتل المكانة الأساسية في ميدان التنافس الكروي الدولي، وللأمر سببان أساسيان: الأول، تصاعد النزعات القومية في بعض الدول الأوروبية (ألمانيا وإيطاليا تحديداً)؛ الثاني، انتقال المنافسات الكروية بين منتخبات الدول التي ظلت على هامش البطولات الأولمبية إلى طور عالمي مع انطلاق أول كأس عالمي في الأوروغواي في سنة ١٩٣٠. فكان لفوز إيطاليا في ظل الحكم الفاشي بكأسَي سنتَي ١٩٣٤ و١٩٣٨، دور في إمداد موسوليني بذرائع دعائية لتأكيد التفوق العرقي الإيطالي، كما أن صعود النازية في ألمانيا بعد الرواج المتأخر نسبياً لكرة القدم فيها (لرفض قومي سابق وصفها بـ "رياضة القوم الإنجليز")، جعل الحزب الهتلري يحاول الاستفادة من القواعد الجماهيرية لبعض الأندية في العاصمة برلين وفي إقليم الرور العمالي (وخصوصاً نادي شالكة) فجنّد شبابها، مفتتحاً بذلك باباً للاستغلال السياسي المباشر سيستمر بعد الحرب العالمية الثانية في عدد من الأندية الأوروبية، ويطال في الخمسينيات والستينيات أندية مدريد الإسبانية (في ظل العهد الفرانكي)، وموسكو وبوخارست وبلغراد وسواها من عواصم أوروبا الشرقية و"المنظومة الاشتراكية".

ومع تزايد المسابقات والبطولات، محلية ووطنية وقارّية وعالمية، ازدادت جاذبية اللعبة، وازداد الإنفاق المالي والاستثمار الإعلامي فيها، ودخل تسجيل المباريات ثم نقلها مباشرة مضمار التنافس، مساهماً في تكوين ولاءات لمنتخبات أو أندية خارج حدودها الوطنية،

منتخب إيطاليا الفائز ببطولة كأس العالم في سنة ١٩٣٤ مؤدياً التحية الفاشية.

وجاعلاً المناسبات الكروية الكبرى في متناول بصريّ لشرائح واسعة من سكان الأرض. ويمكن في هذا السياق اعتبار مسابقة كأس العالم لسنة ١٩٧٨ في الأرجنتين محطة مهمة أو نقطة تحوّل في التاريخ الكروي.

الديكتاتور الأرجنتيني فيديلا مسلّماً كأس العالم إلى قائد منتخب بلده باساريلا في سنة ١٩٧٨.

عسكر وسياسة وأخلاق

فالأرجنتين التي احتضنت مسابقة كأس العالم كانت محكومة يومها بنظام متوحش قاده الجنرال فيديلا، في مرحلة ديكتاتوريات عسكرية شملت معظم القارة اللاتينية. وقد وجّه مثقفون وشعراء غربيون (وعلى رأسهم الفرنسي لويس أراغون) نداءات لمقاطعة المسابقة، لكن أصواتهم لم تُفلح إلاّ في ثني عدد من اللاعبين ومن أعضاء الإدارات الفنية لبضعة منتخبات عن المشاركة. وهكذا افتُتحت المسابقة ثم اختُتمت في بوينس آيرس بفوز الأرجنتين لأول مرة بها، بعد مباراة نهائية دراماتيكية حسم نتيجتها المستوى الرفيع الذي ظهر به اللاعبون الأرجنتينيون من جهة، والضغط النفسي الذي تعرّض له خصومهم الهولنديون عبر تأخير موعد انطلاق المباراة، والتضييق الأمني عليهم من جهة ثانية.

البارز في الكأس المذكورة أن السياسة أرخت بثقلها عليها، ومنحت الحكم الأرجنتيني جرعة معنوية ساعدته شعبياً في وجه معارضيه الداخليين، وساهمت في التغطية على كثير من جرائمه. كما أنها أظهرت بشكل فاضح القدرة السياسية على التلاعب بنتائجها، ذلك بأن تأهّل الأرجنتين إلى المباراة النهائية في ظل نظام المسابقة المعتمد وقتها جرى بتواطوء مع البيرو التي خسّرت نفسها بفارق ستة أهداف، الأمر الذي أهّل الأرجنتينيين على حساب البرازيليين

إلى النهائي. وفي ذلك سقوط أخلاقي للتنافسية التي حكمت فلسفة كرة القدم منذ تأسيسها (وهو سقوط سيتكرر في مسابقة سنة ١٩٨٢ عندما تواطأت ألمانيا الغربية مع النمسا لإقصاء الجزائر عن الدور الثاني، فتسببت بتعديل قوانين المسابقات اللاحقة).

ملصق فرنسي يدعو إلى مقاطعة كأس العالم لسنة ١٩٧٨ في الأرجنتين.

والبارز في هذه الكأس أيضاً أن النقل التلفزيوني لمبارياتها اتّسع اطراداً على نحو لم يسبق له مثيل، كما أنها كانت الكأس الأولى التي توسعت فيها المشاركات الآسيوية والأفريقية بعد تأسيس اتحادين قاريّين يجمعان بلاداً من الأكبر ديموغرافياً في العالم. وقد شكّل الأمر منعطفاً جديداً لسوق إعلانات المسابقة وتغطيتها الإعلامية التقطت أهميته شركة كوكا كولا، فقدمت مبلغ ٨ ملايين دولار لتتحول راعياً رسمياً للمسابقة، وتصبح شراكتها مع "الفيفا" (الاتحاد الدولي لكرة القدم) منذ ذلك التاريخ ولغاية اليوم مثالاً للاستثمار الإعلاني في السوق الكروية.[١]

في مقابل ذلك، لم يكن النموذج الرياضي الوافد من أميركا اللاتينية مقتصراً على المشهد الأرجنتيني الموسوم بما بدا نصراً للديكتاتورية. ففي البرازيل المجاورة، وتحت حكم عسكري آخر، برزت كرة القدم كحالة مقاومة ديمقراطية للاستبداد، خاضها لاعبو نادي كورينثياس في ولاية ساو باولو بقيادة الكابتن سقراط، أحد أبرز لاعبي الكرة البرازيليين، وقد تفاعل معها جمهورهم، وخصوصاً في سنتَي ١٩٨٢ و١٩٨٣ حين فاز النادي مرتين متتاليتين ببطولة الولاية. ففي هذا النادي الشعبي الكبير، قرر اللاعبون إدارة شؤونهم تداولاً وتصويتاً، من عقود العمل، إلى اختيار المدرب والخطط، فانتخاب قائد الفريق. وسُمّيت حركتهم "الديمقراطية الكورنثيانية"، وطُبع اسمها على قمصانهم، وتحولت إلى حالة سياسية أيديولوجية في البلد عشية أفول الحكم الديكتاتوري في سنة ١٩٨٥.

اللاعب البرازيلي سقراط قائد فريق كورينثياس خلال التجربة الديمقراطية للنادي المناهض للديكتاتورية العسكرية في البلد.

شركات ورجال أعمال إلى السياسة عبر الكرة

شهدت ثمانينيات القرن الماضي وتسعينياته بداية الجنون المالي في عالم كرة القدم. فبعد

تحول رعاية الشركات للأندية والمنتخبات الوطنية والمسابقات الكبرى والنقل التلفزيوني إلى تسابق إعلامي وتجاري، دخل رجال أعمال طامحون إلى أدوار سياسية على خط اللعبة عبر انخراطهم في مجالس إدارات الأندية الكبرى في بلادهم وصولاً إلى ترؤسها أو تملّكها.

هكذا، برزت أسماء خيسوس خيل في إسبانيا مع نادي أتلتيكو مدريد، وأسماء رجال أعمال آخرين وافدين من قطاع البناء والفنادق في ناديَي ريال مدريد وبرشلونة. كما برز اسم برنار تابي مع مارسيليا الفرنسي، ثم ظهر برلوسكوني في إيطاليا مع نادي ميلان وتحوّل بعد ترؤسه حكومة بلده إلى حالة اقتصادية ـ سياسية ـ كروية ـ إعلامية خاصة. فبرلوسكوني، الآتي من البورجوازية الميلانية الصغيرة، جنى ثروته من المضاربات والاستثمارات المالية، وبنى إمبراطورية إعلامية جعلته مؤثراً في رأي عام إيطالي محبط من طبقته السياسية. فقد دخل نادي نخبة رؤساء ومالكي الأندية الإيطالية العريقة (ميلان وإنتر ميلانو وجوفنتوس وروما) من خارج الحقل الصناعي أو التجاري أو النفطي الذي تنتمي إليه معظم عائلاتها، وشكل نجاح ميلان الرياضي (محلياً وأوروبياً) في عهده رافعة لشعبيته وللحزب اليميني الذي أسسه، قبل أن تدفعه فضائحه إلى التنحي مؤخراً عن السياسة والرياضة.

بموازاة ذلك، تبدلت معايير سوق انتقالات اللاعبين، وبرز مديرو أعمالهم ورعاتهم، وصار للإنفاق على عقودهم وعلى صورتهم بُعد جديد جعله التنافس بين الأندية الأوروبية الكبرى (وخصوصاً في إسبانيا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا) يتضخم بسرعة قياسية، وبتفاوت كبير، على نحو لم يعُد لمعظم مالكي الأندية أو رؤسائها الأوروبيين القدرة على مجاراته. وباستثناء ألمانيا حيث الرقابة المالية الصارمة وثقافة مشاركة روابط المشجعين في أسهم ملكية النوادي أو رعاية شركات أدوية وسيارات وطنية لأندية المدن حيث مقارها الرئيسية، فإن سائر الدول فتحت في الألفية الجديدة أبواب ملكية أنديتها أو رعايتها أمام رؤوس أموال وافدة هذه المرة من خارج القارة.

استهلت الأمر إنجلترا حيث منشأ الكرة، وحيث النقل التلفزيوني للمباريات هو الأعلى تكلفة في العالم، فظهر بداية رجال أعمال أستراليون وروس، أبرزهم روبرت مردوك ورومان أبراموفيتش الذي تملّك نادي تشيلسي اللندني في سنة ٢٠٠٣، وأنفق عليه خلال عامَين أكثر من ٦٠٠ مليون دولار مكّنته في سنة ٢٠٠٥ من الفوز ببطولة الدوري الإنجليزي. ثم دخل الأميركيون على الخط، عبر تملّك شركات عملاقة أو عائلات ثرية وافدة من قطاعات الإعلام والمصارف والشركات المالية، أندية مانشستر يونايتد (الأخوان غلايزر)، وليفربول (شركة نيو إنغلند مالكة نادي رد سوكس بوسطن للبايسبول)، وأرسينال (ستان كرونكيه، مالك عدة أندية رياضية في كولورادو وكاليفورنيا).

تلت إنجلترا إيطاليا، حيث اشترى المستثمر الأميركي جايمس بالوتا الحصة الأكبر في نادي العاصمة روما. كما أن روساً وأميركيين آخرين أنفقوا أموالاً في أكثر من بطولة أوروبية، ولا سيما في فرنسا التي اشترى فيها الروسي ديمتري ريبولوفليف نادي موناكو البارز في بطولتها، والأميركي فرانك ماك كورت نادي مرسيليا الأكبر شعبية فيها.

وبدءاً من سنة ٢٠١٠، تراجعت شهية الأميركيين والروس "الكروية"، وانتقل مركز الثقل المالي إلى آسيا. فمن القارة الأكبر، بدأ يصعد نجم رجال الأعمال الإندونيسيين والهنود والتايلانديين والصينيين والقطريين والإماراتيين. وإذا كان بعض هؤلاء ممّن اشتروا نوادي مثل إنتر ميلانو الإيطالي، وسانتاندير الإسباني، وليستر الإنجليزي، ثم ميلان الإيطالي، وغيرها، شابهوا نظراءهم الأميركيين والروس في رغبة الاستثمار والربح والشهرة، فإن آخرين أضافوا إلى الأمر مشاريع سياسية أو إعلامية لترويج صورة لبلادهم تنافس صُوَر خصومها.

وليس من قبيل المصادفة مثلاً أن قطر بعد روسيا ستنظم كأس العالم على أرضها في سنة ٢٠٢٢، وأن لاستثماراتها الكروية منذ فترة ما يرتبط بذلك. والأمر نفسه يسري على الصين التي تتحضر لتقديم طلب تنظيم المسابقة عندها في سنة ٢٠٣٠.[٢] وليس من قبيل المصادفة أيضاً أن شركات طيران الإمارات والاتحاد وقطر هي الأكثر حضوراً في رعاية الأندية الكبرى، وإنفاق مئات الملايين على الإعلانات خلال مبارياتها تحضيراً للمسابقات العالمية المقبلة ووجهتها، وتنافساً مع شركات نقل الصين والشرق الأقصى (وخصوصاً التايلاندية والماليزية) التي تؤمّن الرحلات الجوية نحو العواصم المالية والسياحية الآسيوية.

والأهم، أن رجال أعمال من العائلات المالكة، ومسؤولين ممارسين للسلطة، في دولتَي قطر والإمارات العربية المتحدة (أبو ظبي تحديداً)، يتنافسون منذ سبعة أعوام سياسياً عبر كرة القدم، ويسعون لتأكيد حضور بلدَيهما في البطولات الأوروبية الأكثر تشويقاً واجتذاباً للمتابعة والإعلانات. وهم إذ يفعلون ذلك، يدركون أنه يجلب لهم كثيراً من النقد والاتهامات، لكن مقارباتهم الإعلامية لا تكترث للأمر، بل تعتمد على مبدأ احتلال المساحات الأوسع في التغطية الصحافية، وتكريس اسمهم وذكر هوياتهم الوطنية عند كل نجاح. وفي هذا بحسب زعمهم ما ينتزع مشروعية سياسية لهم، ويكوّن شبكة علاقات عامة مع نجوم رياضيين وفنانين وإعلاميين وشخصيات مؤثرة في الرأي العام، ترفد علاقاتهم الدبلوماسية بجرعات دعم إضافي عند الحاجة.

غير أن المنافسة بين القطريين والإماراتيين بلغت في سنة ٢٠١٧ مرحلة بات القضاء في أكثر من بلد أوروبي معنياً بها، نظراً إلى ما يثار من شبهات فساد يرافق صفقاتها. فبعد أندية إسبانية متوسطة المستوى مثل ملقة (ملكية قطرية بين سنتَي ٢٠١٠ و٢٠١٤)، وخيتافي (ملكية إماراتية)، وبعد رعاية مالية قطرية لمركز تدريب برشلونة، وإماراتية (طيران الإمارات) لقسم التجهيزات في ريال مدريد ولملعب نادي أرسينال الجديد في لندن، تحول التنافس بين الدوحة وأبو ظبي إلى مستوى إنفاق مئات الملايين على ناديين من الأكبر في فرنسا وإنجلترا. فبين باريس سان جيرمان برئاسة القطري ناصر الخليفي الذي أنفق في صيف سنة ٢٠١٧ نصف مليار دولار لشراء لاعبَين اثنين (البرازيلي نيمار والفرنسي إمبابي) في صفقتين قياسيتين في التاريخ الكروي، ومانشستر سيتي برئاسة الإماراتي منصور بن زايد (الذي يشغل أيضاً منصب نائب رئيس مجلس الوزراء الإماراتي) الطامح إلى تكرار الفوز ببطولة إنجلترا بعد إنفاقه ٣٥٠ مليون دولار في الأشهر الماضية على خمسة لاعبين جدد، وعلى تجديد عقد مدرّبه الإسباني غوارديولا، بين هذين الناديَين، ثمة حرب تدور ويطمح كل طرف ومن خلفه بلده إلى الاستفادة القصوى منها. ذلك بأن العداء السياسي المتفاقم بين قطر والإمارات صار حاضراً بقوة في كرة القدم، وهناك اليوم محاولات إماراتية للاستفادة من فضائح الفساد المتعاظمة في الاتحادين الأوروبي والدولي لكرة القدم (والتي دفع ثمنها رئيسا الاتحادين بلاتيني وبلاتر) من أجل عرقلة إقامة كأس العالم في قطر. ويعتبر مراقبون أن التحقيقات القضائية الأخيرة في سويسرا وفرنسا، والتي تستهدف عقود النقل التلفزيوني التي تحظى بها مجموعة "بي إن" (المملوكة قطرياً والمرؤوسة من الخليفي نفسه)، تتم بمواكبة إعلامية تشجّع الإمارات صحافيين ووسائل إعلام على الإكثار من الخوض فيها.

بهذا، يوظف البلدان الخليجيان الصغيران ثروات طائلة في بطولات كرة قدم أوروبية، مستكملَين صراعهما السياسي ـ الإعلامي في الميدان الرياضي. ويبحث كل منهما عن حلفاء و"جماهير" وإنجازات تمدّه ببريق الحضور دولياً في مرحلة خطرة سياسياً في تاريخه وتاريخ منطقة الخليج بأكملها.

قميص نادي برشلونة خلال رعاية مؤسسة قطر لمركز التدريب الخاص بفريقه الأول.

ملعب نادي أرسينال في لندن.

القطري الخليفي رئيس نادي باريس سان جيرمان الباريسي مرحّباً بالنجم البرازيلي نيمار في فريقه في أكبر صفقة مالية في التاريخ الكروي.

فريق مانشستر سيتي الإنجليزي الحائز رعاية طيران الاتحاد الإماراتي، والمملوك إماراتياً.

الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي في "الفيفا"

إلى ذلك، تشهد كرة القدم منذ عقدَين ـ مدرّجات مشجعين وقمصان لاعبين وأروقة اتحادات إقليمية ودولية ـ حضوراً كثيفاً للصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي.

وإذا كانت النزاعات السياسية والطائفية كما ذكرنا تبرز بين الحين والآخر في أكثر من بلد، وبين أكثر من بلد،[٣] فإن الموقف من القضية الفلسطينية يبقى الأكثر ظهوراً واختراقاً لكثير من الاصطفافات. وقد اتسع الأمر في الأعوام الماضية، واتخذ منحى تضامنياً مع الفلسطينيين في مباريات ضمن بطولات وطنية (في أوروبا وأميركا اللاتينية)، أو قارّية (في مسابقة بطولة الأندية الأوروبية). كما أن أروقة "الفيفا" شهدت جولات مد وجزر لا تزال حتى اليوم منتظرة البتّ في عدد من ملفاتها. وقبل تناول المواجهة الدائرة دولياً حول العقوبات المطلوبة فلسطينياً على إسرائيل لانتهاكها القانون الدولي في الحلبة الكروية، نشير إلى حالتين رمزيتين على ارتباط وثيق بالصراع.

الحالة الأولى هي حالة فريق سلتيك الإسكتلندي، الذي يحمل مشجعوه أعلام فلسطين دورياً في مبارياته. وقد شهدت المباراة التي جمعته مع فريق بئر السبع الإسرائيلي في تصفيات بطولة الأندية الاوروبية في غلاسكو في صيف سنة ٢٠١٦ رفعاً لآلاف الأعلام الفلسطينية على الرغم من تحذيرات الاتحاد الأوروبي وغراماته المالية. ونظمت كبريات روابط جمهور سلتيك ("الكتيبة الخضراء") حملة تبرعات لمصلحة جمعيات إغاثة ودعم للفلسطينيين جنت خلالها مبلغ ١٩٩,٠٠٠ يورو عشية المباراة مع الإسرائيليين. وتقول الرابطة المذكورة إن تضامنها مع القضية الفلسطينية هو تضامن أخلاقي وسياسي ورياضي، وهي لا تعبأ بالغرامات الأوروبية الناجمة عن ذلك (٨ غرامات وعقوبات خلال الأعوام الخمسة الماضية)... وتجدر الإشارة في الحالة الإسكتلندية إلى أن شرطة مدينة غلاسكو تمنع عادة، ومن دون نجاح يُذكر، مشجّعي فريقَي المدينة سلتيك ورينجرز من رفع الأعلام

جمهور نادي سلتيك الإسكتلندي رافعاً الأعلام الفلسطينية.

الفلسطينية والإسرائيلية (يحمل مشجّعو رينجرز البروتستانت أعلاماً إسرائيلية من باب "النكاية" بخصومهم التاريخيين الكاثوليك) في مباريات الدربي التي تجمعهما.

الحالة الرمزية الثانية هي تلك التي يمثلها نادي ديبورتيفو بالستينو (فلسطين الرياضي) التشيلي الذي يلعب في دوري الدرجة الأولى. فالنادي الذي أسسه في سنة ١٩٢٠ مهاجرون فلسطينيون في سانتياغو (حيث يعيش العدد الأكبر من الفلسطينيين ومن المتحدرين من أصل فلسطيني خارج العالم العربي)، يرتدي قمصاناً بألوان العلم الفلسطيني. وفي سنة ٢٠١٤، قررت إدارة النادي تحويل الرقم ١ على ظهر القميص (حيث يُطبع رقم كل لاعب) إلى خريطة فلسطين التاريخية. وقد اعترضت السفارة الإسرائيلية على القرار، ثم راسلت الخارجية الإسرائيلية نظيرتها التشيلية طالبة حظر الأمر لأنه "ينفي وجود الدولة العبرية." لكن تشيلي (التي تعترف منذ سنة ٢٠١١ بدولة فلسطين) رفضت التدخل في الموضوع، في حين أن النادي المعنيّ ـ ديبورتيفو بالستينو ـ برر خياره باعتبار أنه حين تأسس لم تكن إسرائيل موجودة، وأن خريطته هي خريطة فلسطين الرسمية حين غادرها مؤسسوه. واليوم، يستمر الضغط على النادي وعلى الاتحاد التشيلي لتعديل الأرقام المطبوعة على القمصان، وما زال النادي يرفض الانصياع للأمر.

فريق ديبورتيفو بالستينو التشيلي وقمصانه بألوان العلم الفلسطيني مع الرقم ١ على شكل خريطة فلسطين التاريخية.

على أن المعركة الفلسطينية ـ الإسرائيلية الكروية الفعلية، وبعيداً عن الرمزيات، تدور راهناً داخل أروقة "الفيفا". فالاتحاد الفلسطيني تقدم بشكوى ضد نظيره الإسرائيلي، بسبب إشراك الأخير ـ وهو عضو في الاتحاد الأوروبي للعبة ـ ستة أندية من مستعمرات الضفة الغربية "معاليه أدوميم"، و"أريئيل"، و"كريات أربع"، و"غفعات زئيف"، و"أرافوت هياردين"، وهو ما يُعدّ خرقاً للقانون الدولي الذي يعترف بسيادة فلسطين على الضفة، ويعتبرها أرضاً محتلة. كما أن قوانين "الفيفا" نفسها تحظر السماح لأندية

التفاصيل
مصادرة "للاستخدام العام"

مبدأ القانون الدولي
لا يمكن مصادرة الأراضي إلا لأغراض عسكرية إسرائيلية أو لصالح الفلسطينيين

خريطة للأراضي في معاليه أدوميم حيث أحد الملاعب المُقامة على أراضٍ فلسطينية مصادرة من طرف الاحتلال.

باللعب في البطولات الوطنية لأي دولة إن كانت ملاعبها ومراكز تسجيلها قائمة في أراضي دولة ثانية لا توافق على الأمر. يضاف إلى ذلك، أن سلطات الاحتلال الإسرائيلي تضيّق دورياً على لاعبي المنتخب الفلسطيني، وسبق أن منعت المقيمين منهم في قطاع غزة من الانضمام إلى زملائهم في الضفة، كما أنها اعتقلت في الأعوام الستة الماضية أكثر من لاعب فلسطيني، وحظرت السفر على لاعبين آخرين. ودفعت الممارسات الإسرائيلية عدداً من نجوم الكرة الأوروبيين في سنة ٢٠١٢ إلى إصدار بيان استنكروا فيه تعسف تل أبيب، وطالبوها بالكف عن انتهاك حقوق الفلسطينيين الرياضية.

وعلى الرغم من جميع الانتهاكات المذكورة، فإن "الفيفا" لم تحسم بعدُ أمر الشكوى الفلسطينية، بل إن إسرائيل شنّت حملة سياسية وإعلامية واسعة طالبة تأجيل التصويت على أي عقوبات بحقّ اتحادها الكروي، واعدة بالتفاوض مع الاتحاد الفلسطيني لإيجاد حلول بينهما. وقد قررت "الفيفا" في أواخر سنة ٢٠١٦ منح الطرفين وقتاً إضافياً للوصول إلى اتفاق يجنّبها التصويت على الشكوى الفلسطينية.

ويحاول الاتحاد الأوروبي لكرة القدم التوسط في الموضوع، علماً بأنه مسؤول غير مباشر عن الانتهاكات الإسرائيلية، إذ إن ميزانية كرة القدم الإسرائيلية تتلقى دعماً خاصاً منه، يحوّل الاتحاد الإسرائيلي للعبة بعضه إلى الملاعب المقامة داخل مستعمرات الأراضي المحتلة منذ سنة ١٩٦٧.

ولعل التقرير الأشمل بشأن موضوع الانتهاكات الإسرائيلية، والأندية الستة القادمة من المستعمرات في الضفة، هو تقرير منظمة "هيومان رايتس ووتش" (يمكن قراءته كاملاً في الرابط الإلكتروني التالي: https://www.hrw.org/ar/news/2016/09/25/294422). فهذا التقرير الموثق بالمعلومات والخرائط يشير إلى مختلف الأنشطة الاستيطانية المرتبطة بالأندية الإسرائيلية المعنية، والأنشطة الاقتصادية المرافقة لها. وتعتبر المنظمة الحقوقية الدولية أن "الفيفا" بسكوتها عن الأمر إنما ترعى مباريات مقامة على "أراضٍ مغتصبة"، وتتحمل بالتالي قسطاً من مسؤولية انتهاك القانون الدولي.

أكثر من رياضة، أكثر من هواية

على أن هذه الصورة لا يمكن أن تحجب حقيقة أن كرة القدم كانت ولا تزال اللعبة الرياضية الفنية الأكثر سحراً وجاذبية في العالم، بل إن سحرها يجعل الاستثمار فيها والصراع عليها وعبرها أكثر "ربحاً" لأصحابه، لما يؤمّنه لهم من ظهور وحضور على صُعُد جماهيرية وإعلامية وسياسية ومالية.

ولعل ما تخلقه هذه الرياضة على النطاق العالمي من طقوس ومعابد وعناصر تماهٍ بين جماعات، ومن صلوات وتطيّر وقلق وابتهاج جماعي تشبه الطقوس الدينية بمحرّمات أقل، وبالتالي بمخيلة عبادة أغنى وأرحب، يجعل محاولات التوظيف فيها، إن نجحت، عالية الجدوى و"المردود". وهذا سيستمر على الأرجح مستقبلاً، وسيفتح كرة القدم على مزيد من تشابك قضايا عالمنا وتشوهاته، من دون أن ينال كثيراً من هيبتها وأناقتها في ذاتها، ومن كونية المشاعر التي يولّدها هنا أو هناك عناق طاباتها للشباك على ضفتَي الملعب... ■

المصادر

١ على سبيل المقارنة التي تظهر تطور الإنفاق (المذهل) على الرعاية والنقل المباشر بعد سنة ١٩٧٨، دفعت كوكا كولا مع أديداس وبطاقات الاعتماد فيزا وطيران الإمارات وهيونداي مبلغ مليار و٣٥٠ مليون دولار لرعاية كأس العالم لسنة ٢٠١٤، بينما بلغ المبلغ الذي سددته شركات النقل التلفزيوني ملياراً و٧٠٠ مليون دولار.

٢ تحضيراً لطلب التنظيم، تنفق أندية صينية منذ سنة ٢٠١٦ مبالغ طائلة لضم نجوم كرة دوليين تقدموا بعض الشيء في السن إلى صفوفها لتعزيز البطولة الوطنية ورفع مستواها (مثلاً، العاجي دروغبا والأرجنتيني تيفيز). وكان بعض الأندية القطرية قد فعل الأمر نفسه قبل أعوام عبر استقدامه نجوماً أوروبيين ليلعبوا في صفوفه قُبيل تقاعدهم (أبرز هؤلاء هما راوول وشافي الإسبانيان)، بما يساهم في تحسين الأداء والحصول على اهتمام إعلامي دولي.

٣ يمكن هنا ذكر حالة الصدام بين السلفادور وهندوراس خلال تصفيات كأس العالم لسنة ١٩٧٠، والتي كانت شرارة إشعال حرب بينهما، كما يمكن ذكر التوتر بين مصر والجزائر خلال تصفيات كأس العالم لسنة ٢٠١٠، وكذلك في أغلب المباريات التي تجمع إيران بالسعودية خلال التصفيات الآسيوية. ويمكن أيضاً عرض العديد من الصراعات التي تفرض نفسها في بطولات وطنية: فالجهوية بين الشمال والجنوب حاضرة في كثير من المباريات الإيطالية، والتنافس التاريخي بين الناديين الأشهر في العالم برشلونة الكاتالوني وريال مدريد الكاستياني الإسباني يحوّل الكلاسيكو بينهما إلى المناسبة الرياضية الأكثر إثارة دولياً. ويمكن ذكر مباريات أجاكس أمستردام وفيينورد روتردام في هولندا والعداء التاريخي بينهما، وكذلك الحديث عمّا يعبّر عنه الصراع في مدينة إستانبول بين فنار بهشة القومي وغالاتا سراي "الأوروبي"، وكثير من المباريات الكبرى الأُخرى في العالم. ونستطيع أيضاً الحديث عن جماهير الأهلي المصري ونشيدها وعن دورها في الثورة المصرية وفي تصدي "الألتراس" لبلطجية النظام في ميدان التحرير، ثم تعرّضهم لمجزرة نظمتها الأجهزة الأمنية بحقّهم في بورسعيد انتقاماً من دورهم السياسي ورفضهم "المجلس العسكري" (أودت بحياة ٧٤ شخصاً منهم في سنة ٢٠١٢).